تماهي الأنا والآخر في رواية جذور وأجنحة للكاتب سليم بتقه

The ego and the other identify in the novel roots and wings of the writer salim betka

هنية جوادي

كلية الآداب واللغات قسم الأدب العربي جامعة محمد خيضر بسكرة

(الجزائر)،hania.djouadi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/12./28 تاريخ القبول: 2020/06./29 تاريخ النشر: 2020/11/09

الملخص:

تمثل رواية جذور وأجنحة للكاتب الجزائري سليم بتقة أنموذجا سرديا، أعاد هيكلة إشكالية العلاقة بالآخر، وصياغتها بأسلوب حداثي، يقدّم فيه السردُ نفسَه بوصفه خطابا متعددا، ينهض على المفارقة وتنسيب الحقيقة التاريخية والنظر في متناقضاتها. إذ إن أهم ما تسعى إليه الذات المبدعة لهذا المنجز، التأسيسُ لحوار مثمر مع الآخر، يعطي الأشياء والعلاقات دلالات جديدة، تنسجم وروح العصر، وتتجذر في أعماق الهوية الإنسانية، وما يطبعها من قيم نبيلة كالحب والتسامح والإيمان بأهمية الحوار والتواصل.

الكلمات المفتاحية:

Abstract:

. Salim Betka's novel *Roots and Wings* represents a narratological model which has restructured the problematic relationship with ;;the other", which has been expressed in a modernist style. The narrative text manifests itself in a multidimensional discourse that comes to be based on contrast and difference. It also reattributes historical facts and re-examines its paradoxes. This is the essence of what a creative mind actually seeks to achieve: The foundation of an interesting dialog with "the other, which adds new significance to objects and human relations. This could be seen in values such as

المؤلف المرسل: هنية جوادي، **الإيميل:** hania.djouadi@gmail.com

1. مقدمة:

يقودنا الحديث عن إشكالية الأنا والآخر في الخطاب الروائي الجزائري إلى ضرورة الحديث عن السياق العام الذي أسس لهذه العلاقة والمتمثل في حرب التحرير الوطنية التي تعد منعطفا حاسما في مسيرة نضال الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وتتويجا لسنوات مريرة من الآلام والمعاناة في ظل الوجود الاستعماري، فالثورة المجيدة، هبّة عارمة، دكّت قلاع الطغاة المعتدين، وأكدت للعالم أجمع أن الأوطان تفدى بالنفس والنّفيس، وأن الحرية شرط الحياة الإنسانية الكريمة.

ألقت أحداث الثورة المسلحة بظلالها على الكتابة الأدبية، وتفاعل المبدعون بموضوعها، والتحموا بها التحاما كبيرا، واستطاعوا رسم لوحات مشرقة، وإبداع صوّر فنية فريدة، استلهموها من زخم الثورة، ومن كثافة التجربة النّضالية الفذّة التي خاضها الشعب الجزائري ضد المستعمر. الأمر الذي جعل الثورة المسلحة، تحوز على صفة المرجعية الأساسية لإبداعات روائية كثيرة، ظهرت في فترة السبعينيات والثمانينيات، كما ظهرت في تجارب روائية أخرى سبقتها، وامتد الاشتغال على موضوعها إلى التجارب الروائية المعاصرة، فانفتحت هي الأخرى على تاريخ الثورة، وحاولت تجديد الحديث عن قضاياها والسعي إلى قراءتها على حقيقتها المعقدة، وطرح أسئلتها الحرجة التي ظلت ترهق الذات وتشوش عليها.

سعت هذه النصوص الروائية (المعاصرة) إلى تمرير خطاب الثورة وإشكالاتها بطرق وأساليب جديدة، ومن منظورات متنوعة، تمتزج فيها الذات مع وقائع التاريخ من جهة، وتحولات واقع ما بعد الحداثة الذي يفرض أنساقا معرفية جديدة في التعاطي مع القضايا المصيرية، وفي مقدمتها إشكالية العلاقة بالآخر. التي أصبح من الضرورة بمكان، إعادة النظر فيها على مستوى الكتابة الأدبية.

ومما سبق، تسعى هذه الدراسة إلى مقاربة العلاقة بين الأنا والآخر في رواية جذور وأجنحة للروائي سليم بتقة، وهي إشكالية تطرح نفسها بقوة في الإبداع الروائي الجزائري المعاصر، بفضل ما تشهده العلاقة بالآخر من تحديات، تفرضها تحولات الراهن، الأمر الذي استدعى ضرورة البحث عن مفاهيم حضارية بديلة، من شأنها أن تحقق نوعا من الائتلاف والتصالح، وتخلق إمكانيات للعيش المشترك بين الطرفين. ومن هذا المنطلق، فالدراسة تحاول الإجابة عن جملة من الأسئلة أهمها:

ما النسق المعرفي الذي تبنته رواية جذور وأجنحة في اشتغالها على ثنائية الأنا والآخر؟ ما المنظور الذي انطلقت منه في معالجتها لهذه الإشكالية؟ وما الموقف الذي أبانت عنه؟ وهل نجحت في استنطاق المحظور من ذاكرة الجزائريين؟ وهل تسنى لها تحويل التاريخ إلى متخيل؟ وما أهم الاستراتيجيات الفنية التي اعتمدتها في تحيين إشكالية العلاقة بالآخر وإعطائه دلالات جديدة؟

لكن قبل الإجابة عن هذه الانشغالات، حري بنا الانطلاق من الإطار التاريخي العام الذي تشكلت فيه علاقة الأنا بالآخر، وظل يغذّيها إلى يومنا هذا، ويطبعها بالصراع.

2. تحولات تيمة الثورة في الرواية الجزائرية المعاصرة / من قراءة الظاهر إلى قراءة المضمرإذا كانت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية لم تظهر إلا بعد الاستقلال، أي أنها لم تعرف نضجها الفني لا قبل الحرب، ولا خلالها، فإن زخم الحدث الثوري، جعل الثورة التحريرية تلقي بظلالها على الكتابة الروائية، فقد شكلت مصدرا ثريا، يعود إليها الروائي في كل زمان، لينهل من معينها، ويصوّر أحداثها، ويرصد إنجازاتها.

وهذا الزخم الثوري ـ غير المشهود ـ الذي تتسم به الثورة المسلحة، هو الذي جعل فن الرواية يتجه في بداية الأمر إلى المرجعية الثورية، يستقي منها ومن بطولاتها موضوعاته الأساسية (محمد مصايف،1983، ص78).

والمتتبع لمسار الرواية الجزائرية إلى غاية الثمانينيات، يجد أن أكثر من90% منها كتب عن الثورة الوطنية بأشكال مختلفة، وحسب رؤية كل أديب. (واسيني الأعرج، 1983، ص228) نظرا لاتسام هذه التجربة الثورية الفذة بكثافة الأحداث وجسامة التضحيات، وهذا ما أوكل إليها صفة المرجعية الأساسية في بنية الحدث الروائي وفضاءاته المتداخلة (بشير بويجرة،2002،2001، ص123)

لكن ثمة سؤال يطرح نفسه بإلحاح شديد مفاده: هل استطاعت مختلف التجارب الروائية التي اشتغلت على موضوع الثورة، أن تكون في مستوى عظمة الحدث الثوري المجيد؟ وبماذا تميزت هذه التجارب على المستوى الفني والجمالي؟

لا مناص من أن الروائيين الجزائريين قد اهتموا اهتماما بالغا بالثورة التحريرية الكبرى، إلا أن إبداعاتهم اتسمت بالنظرة التبسيطية ـــ الاستعراضية ـــ للصراع بين الأنا والآخر، أي بين

الجزائري الثائر دفاعا عن أرضه المسلوبة، وهويته المشوهة، والفرنسي الغاصب المحتل. أما ما تشـير إليه الروايات من نشـاز، فيتصـل بالخونة المتعاونين مع المسـتعمر ضـد الثورة التحريرية.

أما على مستوى البنية الفنية للخطاب السردي، فغالبية الروايات تنزع منزعا تقليديا في شكل الكتابة وأدواتها الفنية، فهي تخضع إلى نسق زمني تتابعي، وتتسم مكوناتها السردية بالنمطية وأحادية الرؤية التي لا تفتح المجال واسـعا للخيال الفني الخلاق والأفق الإبداعي الواسـع، وهذا القصـور الفني لم يسـمح لها من إبراز جماليات الحدث الثوري، والنفاذ إلى مواطن أزماته.

وفي هذا السـياق، يذهب الناقد سـعيد علوش إلى أن مثل هذه الأعمال القابعة خلف حدود أسـلوب القص التقليدي العاجزة عن تجاوزه لا تسـتطيع الارتقاء إلى عظمة الحدث الثوري وزخمه، لذا فقد "يحكم عليها بأن تبقى أقل من الواقعي والثوري الذي يكون موضوعها" (سعيد علوش، 1981، ص57).

وعلى هذا الأسـاس، حاول بعض الروائيين المعاصـرين، تجريب كتابة سـردية مختلفة في اشتغالهم على متخيل الثورة، تنهض على المواجهة والرفض ـ رفض السائد والمألوف ـ وتتخذ من استحضـار الثورة مرتكزا أساسـيا لنقد الواقع المتردي، وما يكرسـه من إقصـاء وتهميش للذات، ويمكن أن نشير إلى رواية (اللاز) للطاهر وطار و(التفكك) لرشيد بوجدرة و(ما تبقى من سـيرة لخضـر حمروش) لواسـيني الأعرج... وهي في مجملها نصـوص تنتقد ازدواجية الخطاب السـياسـي الجزائري، وتعري الواقع الاجتماعي، وتكشـف تهافته، وترى فيه امتدادا طبيعيا للماضي الاستعماري.

حاول هؤلاء الكتاب ــ وغيرهم ــ تجاوزوا الطريقة التقليدية، في القص واعتمدوا على أساليب سـردية جديدة كالاشـتغال على الذاكرة والحلم والفلاش باك، والتداعي الحر، والمفارقات الزمنية، وفتحوا المجال مشـرعا للخيال الخلاق وللغة الشـعرية الدالة، ولتشـاكل مختلف المكونات السـردية، فتسـنى لهم تحويل الواقع التاريخي إلى واقع روائي، تتحكم فيه متطلبات الفن والتخييل. غير أن المتتبع للنتاج الروائي الذي اشتغل على موضـوع الثورة، يلحظ تفاوتا بين الواقع التاريخي والمتخيل الجمالي، ولعل ذلك يعود أسـاسـا إلى تفاوت الوعي التاريخي بمسار الثورة الجزائرية النضالي عند كتاب الرواية. (بوجمعة، بوشوشة،1988، ص11)

وإذا دققنا النظر في الرواية الجزائرية الجديدة (المعاصرة)، نجد أن تيمة الثورة وما أفرزته من قضايا وإشكالات . كما سبقت الإشارة إلى ذلك . لا تزال تشغل اهتمام كثير من الكتاب، وتمتد في إبداعاتهم الروائية، فقد استثمروا موضوعها، وولجوا عوالمها من أبواب جديدة من خلال طرقهم لموضـــوعات، ظلت لفترة زمنية طويلة بعيدة عن متناول أقلام الكتاب، ومحظورة عنهم.

أوجد هؤلاء الكتاب لأنفسهم آليات، واستعملوا أساليب حداثية ملائمة لمتخيلاتهم الثورية المفارقة، عبروا من خلالها عن وعيهم النقدي المفارق للتاريخ الرسمي، وعن انزياحهم عن أساليب الكتابة السائدة في النماذج الروائية السابقة التي تناولت تاريخ الثورة الجزائرية.

ومن النصوص الروائية الجزائرية التي نزعت إلى هذا المنحى التجريبي على مستوى المضامين وطرق السرد، نجد رواية جذور وأجنحة للكاتب سليم بتقة، لذا وقع اختيارها مدونة لهذه الورقة البحثية .

3. تقديم الرواية:

تعد رواية جذور وأجنحة (سليم بتقة،2014) النص الافتتاحي الذي ولج من خلاله الباحث الأكاديمي الجزائري سليم بتقة عوالم الكتابة الروائية، فقد صدرت هذه الرواية عن دار علي بن زيد للطباعة والنشر ببسكرة سنة(2014) وتمثل الرواية سجلا تاريخيا حافلا، يرصد معاناة أهل الجنوب الجزائري إبان الاستعمار الفرنسي، ويعيد انتاج كثير من الحقائق والأحداث المهمة المصاحبة للحملة الفرنسية الشرسة على المنطقة.

اختار الكاتب فضاء الصحراء . لما يثيره من عناصر تأملية فلسفية . إطارا عاما للحكي، كما استعان ببعض البني المكانية الفرعية (الريفية) كالمقهى الشعبي والبيت وفضاء المقبرة والسوق الشعبية...لما يطبعها من خصوصية ثقافية. وقد بدت في مجملها فضاءات عامرة بالدلالة الاجتماعية والحضارية، أسهمت في تأصيل نص الرواية، وتجسيد خصوصية المكان والإنسان.

في رحاب هذا الفضاء الممتد المفعم بدلالات الأصالة والتجذر والانتماء. يسعى الروائي سليم بتقة إلى طرق موضوع العلاقة بالآخر/ الفرنسي، ويعد هذا الموضوع واحدا من أهم الموضوعات التي أفرزتها الثورة المسلحة. وأفرزت نمط الوعي بها. وهو نمط لا يزال يفرض نفسه بقوة على مستوى خطاباتنا المختلفة العامة والخاصة.

أفضت علاقة الصراع بين الأنا والأخر في الرواية موضوع الدراسة، إلى هيمنة الهاجس التاريخي على أحداثها ومضامينها، من خلال إحالتها على عمق ملتبس، يمثل واقعا أصبح في يومنا هذا جزءا من الذاكرة التاريخية الثورية، يظل يلقي بظلاله على حاضرنا ومستقبلنا.
لكن، ما صنع تميز هذه الرواية مقارنة بنصوص أخرى سابقة وموازية لها، تقاسمها الاشتغال على تيمة الثورة وثنائية الأنا والآخر، هو خصوصية الوعي الذي تصدر عنه، وهو وعي سردي ينبعث في اعتقادي من فضاء الذات ومن داخل محيطها الثقافي المحلي، لكنه يحلق بأجنحته السردية ليلامس الهمّ الحضاري والإنساني. حيث يتجاوز علاقة التصادم والانكفاء على الذات من جهة، ودعوات المسخ والانفتاح ــ اللا مشروط ــ على الغرب التي تدعو إلى دمج المجتمع العربي في النموذج الغربي من جهة ثانية. والنظر إلى الآخر بعده " معطى موضوعيا مشروطا بتاريخه وآليات تطوره وعلاقته بغيره من المجتمعات (محمد بدوي، 1993، ص80)، فالموقف الأخلاقي للروائي وشخصياته، لا يمكن فهمه إلا في إطار نزعة واحدة فقط هي نزعة التوفيق بين تاريخين وحضارتين، ظلتا مختلفتين ردحا من الزمن. وقد آن الأوان لرأب هذا الصدع الإنساني والبحث عن إمكانيات للتواصل والعيش المشترك.
تأسيسا على ما سبق، وعلى خلاف علاقة النفي المتبادل بين الأنا والآخر التي سادت الرواية الجزائرية التي تناولت جدلية الأنا والآخر، وعمدت إلى تنميطها وفق إملاءات الوعي به. تقدم لنا رواية جذور وأجنحة من خلال أحداثها وحركة شخصياتها نموذجا ـــ جديدا . لعلاقة إنسانية نبيلة، تنهض على الامتزاج بالآخر والتماهي معه في صورة إنسانية متعالية. ترى أن رفضه في صورته الاستعمارية المرتبطة بالاعتداء على الأرض وتهديد الوجود، لا تعني رفضه في صورته الإنسانية والحضارية.
ومن أجل تجسيد هذه الرؤية النقدية التي تؤسس لمتخيل سردي جديد مسكون بالاختلاف، يختزل مواقف الكاتب الفكرية والجمالية، وتطلعه الإنساني النبيل، تعيد الرواية رسم صورة العلاقة بين الأنا والآخر، وإبرازها، وتبليغها للمتلقي وفق استراتيجية سردية، تنهض على:

4. تفكيك صورة الآخر/ زعزعة النموذج والبحث عن المشترك الإنساني المفقود

4. 1 الآخر/المحتل، العدو، المستبد...

تسعى رواية جذور وأجنحة إلى تفكيك صورة الآخر/ الفرنسي وزعزعة نموذجه القابع في الوعي الجمعي للمتلقي الجزائري ــ والعربي بوجه عام ، بعده المفارق والنقيض على جميع

المستويات ، فالكاتب يهدف منذ الصفحات الأولى للرواية إلى البحث عن الخلفيات الإنسانية والتقاطعات الحضـــارية التي تمكّن من التأســـيس لعلاقة جديدة مع الآخر ، تتجاوز علاقة الصـــدام والهيمنة، التي فرضـــتها الحقبة الاســـتعمارية لما تحمله من قهر وإذلال للذات، فالحروب كانت ولا تزال تكرس القطيعة، و تحمل معنى التعدي والعدوان على الآخر، وإن كانت تحاول دوما إخفاء الوجه الآخر(الحقيقي) للمســـتعمر، ومن ثم فالانا في الرواية موضـوع الدراســة، لم ترفض الآخر، وتحاربه لأنه آخر، ولكنها تحاربه لأنه ظالم ومسـتبد ومضـطهد، فالاسـتعمار الفرنسـي للجزائر، كما يصـوره الباحث سـليمان الشـيخ "يمثل حالة عنف، لا لأنه ممثل بالدركي والجندي، بل كذلك بإدارته وقوانينه واقتصاده ومؤسساته، وحتى في نظام حياته اليومية، لأنه يفرض نفسه كقدر" (سليمان عشراتي، 2002، ص165)

لقد كرست فرنسا الاستعمارية منذ غزوها للجزائر، عنجهية أوربية واحتقارا للعرب الجزائريين، فهم كما تصورهم ليسوا إلا أعداء قذرين، وهم شعب غارق في التخلف والغيبيات (لينا عوض، 2004، ص178).

يسـتلهم السـارد هذا الماضـي التاريخي، الموغل في البشـاعة والعدائية اتجاه الذات الجزائرية، ويعمد إلى تحبيكه، حين يعود إلى ســـنة(1849)، الســـنة التي عين فيها القائد توماس Thomas مسؤولا على المنطقة، ليكشف لنا عن حقيقة الآخر الذي طالما كان معاديا للذات مهددا لوجودها "منذ ذلك الوقت لم ير سـكان المنطقة خيرا، فقد فرضـت الضـرائب، وانتزعت الأراضـــي وهجر الســـكان وعذب الأبرياء، ونصـــبت المقاصـــل للأحرار المقاومين (ســـليم بتقة،2014، ص19) لذا كان من الضروري مواجهة هذه الغطرسة الاستعمارية، ومقاومتها بكل الطرق، وبشـتى الأسـاليب، دفاعا عن الأرض المغتصـبة، والكيان المهدد بالانسـحاق تحت أقدام الغزاة. وهذا ما قام به أهل قرية ســيدي لحســن الطرهوني، فقد خرجوا عن بكرة أبيهم، وواجهوا المحتل بصـــدورهم العارية وبإمكانات بســـيطة، ودافعوا عن حقهم في الحياة الكريمة.

ودائما في إطار إعادة إنتاج صـورة الآخر في الرواية، وهي صـورة يسـتشـف السـرد ملامحها من انفتاحه على بعض الكتابات الغربية التي روجت للوجود الفرنسـي في الجزائر، وأرادت له أن يكون ـ بسبب أطماع المستعمر ـ على درجة من القتامة والسلبية، فالآخر هو الذي سولت له نفسـه احتلال الجزائر منسـاقا وراء أطماعه التوسـعية و "هو الذي حرك الصـراع على هذا

النحو، بما قدمه من صورة استعمارية بشعة، وبما قدمه من رؤيا عنصرية، تتصل بالمركزية الأوربية للعالم، وهي مركزية تسعى لتهميش دور الحضارات الأخرى في العالم" (محمد نجيب،التلاوي،1998، ص43).

ومن الخطابات المعبرة عن مرضيات الهيمنة الاستعمارية، والاستعلاء على الشعوب المستضعفة التي تستحضرها الرواية، هذا الخطاب المعبّر عن أحلام الكتاب الفرنسيين في إخضاع الأهالي والسيطرة عليهم.

"هؤلاء الأهالي يمثلون تهديدا على المدى القريب والبعيد، نوع من سحابة عاصفة في الأفق، يمكن أن تنهمر فجأة علينا، وإننا هنا لأن حكومتهم أهانت فرنسا: حادثة المروحة، وانتقمنا لشرفنا...وكانت الحملة وكنا هنا، كما في كل مكان يرفرف رفيه العلم الفرنسي... نحن الفرنسيين نملك كل شيء تقريبا؛ المنازل والأراضي الخصبة، الثروة الحيوانية، الآلات، الدرك، الكنائس، الأشجار السيارات، الخيول والعربات الدرجات والعربات، هم لا يملكون شيئا، باستثناء بعض العجول الهزيلة، والأغنام المريضة..." (سليم بتقة، 2014،ص67)

تعيد الرواية إذا، إنتاج مقولات الآخر، وتعمد إلى تنسيبها والتشكيك في مصداقيتها من خلال وضعها في سياقات سردية جديدة، تعيد رسم تلك الصورة السلبية للآخر / المستعمر. تلك الصورة الدامية التي يبرز فيها هذا الأخير، قوة مدمرة للذات الجزائرية، غازية لفضائها الجغرافي، مستأثرة بكل خيراتها وإمكاناتها. والسارد من هذا المنطلق يقدم للقارئ رؤية بديلة، مقاومة لكثير من الخطابات الزائفة القائمة على الهيمنة والرغبة في استلاب الذات الجزائرية، وهي كما يصفها (السارد) خطابات مضللة " تنتصر لأسطورة الرجل الأبيض، وتقلل من شأن الآخر العربي، وتصفه بالمتوحش المفترس، وتدعم المساعي التحضيرية والتنصيرية مرورا بالإبادة العرقية" (سليم بتقة، 2014، ص15)، فالمؤمنون بأحلام تصدير الحضارة والمدنية الغربية إلى العالم الآخر (المستعمر)، لا يرون إلا أنفسهم ومصالحهم الخاصة، إنهم يتحركون كما يقول السارد: " بواسطة الهروب من حاضر بائس، والذهاب بعيدا إلى تلك النواحي غير المألوفة، المشروع الاستعماري يتجسد، الأمل المجنون بالمسك على السعادة المنشودة"(ريم الفواز،2011،ص212)

الأمر الذي يجعل " خلفية العلاقة بين الذات العربية والآخر مؤسسة على ذهنية التصادم والصراع وفق معادلة طرفها الأول تحكمه قوة استعمارية، تريد فرض هيمنتها وسطوتها

بأساليب الردع والإذلال، أما طرفها الثاني، فتحكمه قوة روحية مستمدة من التشبث بالقيم الإنسانية النبيلة في أبعادها الشرقية (ريم الفواز،2011، ص نفسها)

وبمرور الزمن، تحولت هذه الروح الشرقية في الوعي الغربي الحديث والمعاصر إلى صورة من صنعه، سهُل عليه بعدَها تحويلها إلى شيء، إلى شعوب يستعمرها، ومادة أولية ينهبها، ومناطق شاسعة يحتلها... فقد أصبح الشرق في ذروة المد الاستعماري مادة بلا روح (عبد العزيز شرف،1991، ص32)، بعدما تمكن الغرب من إفراغه من محتواه، ومن قيمه الروحية الأصيلة وشروطه التاريخية. وقاد هذا الوضع إلى انهياره (الشرق) وتبعيته للآخر، ولكن رغم هذه الصورة القاتمة للآخر، يفتح السرد نافذة أمل، يستشرف من خلالها إمكانية تغير هذه الصورة النمطية للآخر.

4 . 2 الأنا والآخر/ إمكانية اللقاء وتجسيد الحلم الإنساني المنشود

تتجاوز جذور وأجنحة علاقة القطيعة مع الآخر الفرنسي، لتكشف عن صورة جديدة، أقل ما يقال عنها إنها صورة إنسانية مشرقة، تمثل جانبا من تاريخ الثورة الجزائرية المغيب، تسعى الرواية إلى ترهينه من خلال انفتاحها على سؤال، ظل يشغل اهتمام ثلة من المؤرخين والباحثين وكذا الرأي العام الجزائري، يتعلق بالموقف الإيجابي لبعض الفرنسيين من كفاح الشعب الجزائري، وحقه في تقرير مصيره واستقلاله.

وأعني هنا موقف المثقفين والإعلاميين الفرنسيين ـ ذوي التوجه اليساري، الذين كان لهم دور كبير في مناهضة الاحتلال الفرنسي للجزائر، والتصدي لجرائمه القمعية ضد الشعب الجزائري، وقد يكون (جون بول سار تر) والمؤرخ (فيدال ناكي) والإعلامي البارز رينيه فوتيه، إضافة إلى المفكرين: سان سيمون و برودون الذين تبلورت على أيديهما الأفكار الاشتراكية في فرنسا ...وغيرهم من المثقفين الملتزمين من أبرز الشخصيات الغربية المناهضة للاستعمار بكل أشكاله. كما دافع الأحرار من الفرنسيين عن الوضعية الاجتماعية المتدهورة في الجزائر، بالنسبة للأهالي (سليم بتقة،2014، ص188)

بالموازاة مع الصورة السابقة التي كرست القطيعة أو اللقاء المستحيل بالآخر، تقدم لنا رواية جذور وأجنحة نسقا مختلفا للمواجهة الحضارية بين الأنا والآخر، يتمثل في نسق التواصل واللقاء، تكشف من خلاله عن نموذج لعلاقة إنسانية نبيلة، تتكئ على خلفيات إنسانية

مشتركة، تزعزع تلك الصورة النمطية للآخر التي ظلت راسخة في الوعي الجمعي الجزائري والتي ترى فيه النقيض والعدو الذي يجب رفضه في شتى صوره.

تتيح الرواية إذا، المجال للآخر، كي يعبر عن إنسانيته، ويتقدم إلى واجهة السرد، وتجعل منه مناط اهتمام السارد وشخصياته، وأداة تكشف عن موقف المبدع الرافض لتنميط صورة الآخر، والمؤمن بضرورة الانفتاح عليه، ومحاورته والإنصات إلى هواجسه بعيدا عن إملاءات الوعي . الماضوية به .

يبرز الآخر في هذا النسق المختلف مثلما سبقت الإشارة إلى ذلك، من خلال شخصية الجندي الفرنسي فابيان الذي يجسد هذا النمط من التواصل مع الآخر (الذات الجزائرية) ويمثل علامة دالة على الأنا المجزأة للآخر، فهو شخصية يرمز بها الكاتب إلى جزء من الآخر، يتميز بإنسانيته ورفضه للظلم والقهر، الممارس على الجزائريين. إنها كما يذهب السارد تعبر عن " تصور آخر للحياة، ينسجم مع الأفكار التحررية التي تتأسس على تحدي السلطة الفرنسية، وفي احترام الحرية الإنسانية(سليم بتقة، 2014، ص8)

وباستقطاب الرواية لشخصية فابيان، إلى فضاء الأنا (الصحراء الجزائرية) تكون قد انزاحت عمّا دأبت عليه معظم الأعمال الروائية العربية التي تناولت إشكالية الصراع بين الأنا والآخر، بتوجيهها الأنا، أو الذات العربية في الأغلب الأعم إلى فضاء الآخر(الغرب)، حيث يتم . هناك . التواصل مع الآخر، والتعرف على ثقافته وحضارته.

تنطلق رواية جذور وأجنحة من فعل الخروج أكثر الأفعال ورودا في السرد العربي القديم والحديث على حد سواء، وبخاصة السرد الروائي المهتم بإشكالية الصراع الحضاري. وفعل الانتقال أو الخروج، في الرواية هو الفعل الذي يعطي انطلاقة السرد، في جذور وأجنحة، ويجعل أحداثه تتدفق لتحكي مغامرات تلك الرحلة الطويلة التي قادت الجندي الفرنسي فابيان إلى صحراء الجزائر، فقد "خرج فابيان في رحلة طويلة (سليم بتقة،2014، ص13) ولم يكن خروجه إلى هذا الفضاء الغريب مجرد انتقال من موطنه الأصلي فرنسا إلى مكان آخر جديد، ولكنها كانت في حقيقتها رحلة معرفية، أسهمت في تغير وعيه، وفتحت أمامه آفاقا جديدة، مكنته من اكتشاف الآخر (الجزائري) ومعرفته عن كثب.

يحكي لنا السارد في بداية الرواية بعض الجوانب المهمة من السيرة الذاتية لـفابيان العسكري الفرنسي الذي عينته السلطات الاستعمارية مراقبا دائما، يرصد تحركات أهالي دشرة سيدي

لحسن الطرهوني، بعد إصابته البالغة في معركة التل الشرقي، إثر تعرضه لنيران صديقة. ولم يكن " من السهل عليه تقبل الوضع الجديد، أن ينقل خطواته ونظراته عبر المساحة الخالية، إنها الصحراء. (سليم بتقة،2014، ص27)

يزج (السارد) بهذه الشخصية في فضاء مكاني جديد مختلف عن فضائها الأم. ويسمح لها بالمغامرة وارتياد فضاء الصحراء بكل ما يسمه من جدب ووحشة وخوف ورهبة وتيه ورتابة.

ومن هنا، تلعب المفاصل السير ذاتية المتعلقة بحياة فابيان في الماضي وما يطبعها من معاناة واغتراب وبخاصة في الصفحات الأولى من الرواية . تلعب دورها في لفت انتباه القارئ إلى هذه الشخصية، وتحاول استمالته إليها، وإيهامه بإمكانية وجودها.

كما تؤدي كل من الاسترجاعات الزمنية والاشتغال على الذاكرة دورهما في التأسيس لنوع من الانسجام بين الشخصية والمكان، فعندما يعود فابيان بالذاكرة إلى ماضيه الأليم، حينما كان جنديا في أحد المعارك، حيث الموت والخوف والدمار، نجده لا يتوانى في محاربة الشعور بالغربة الذي ينتابه بين الفينة والأخرى، في هذا الفضاء الصحراوي المتسع الرتيب. إنه كما يقول السارد:" يرفض أن يحس بمرارة الغربة والوحشة ... ينكس بصره ثم يلقي به بحركة سريعة إلى صخب المعارك المرعبة التي عاشها... لم ينس كلام الضابط وهو يدفع بالجند إلى أتون المعركة. (سليم بتقة، 2014، ص9)

ولعل هذا ما يجعل شخصية فابيان تمثل أنموذجا للذات المغامرة التي يقودها وعيها وفضولها المعرفي وكذا رغبتها في اكتشاف الآخر إلى الإصرار على ضرورة تخطي حالة الاغتراب المكاني، التي تفرضها الهجرة المكانية للشخصية إلى فضاء آخر ـــ غريب ـــ هو فضاء الصحراء، كما تحاول هذه الشخصية تجاوز ماضيها الآسي وآلامها المريرة، التي زجت بها في غياهب المجهول.

جاء فابيان إلى الجزائر على غرار كثير من الجنود والعساكر والمعمرين ـــ محملا بأفكار سلبية عن الأهالي و وحشيتهم. ولطالما قرأ في الأدبيات الفرنسية، أن الأهالي الجزائريين، يشكلون خطرا، يهدد أمن وسلامة الفرنسيين، فقبوله المجيء إلى هذه القرية الصحراوية النائية، يعد مغامرة. إنها كما يصفها مرافقوه "المغامرة المحفوفة بالمخاطر"(سليم بتقة،2014، ص34)

ومن جهته سعى الكاتب إلى توسيع عالم الرواية المعرفي والثقافي، بأن اتخذ من الصحراء فضاء مكانيا يلتقي فيه الإنسان بالإنسان، وتتصهر فيه ثقافة الأنا مع ثقافة الآخر، حيث تقف الثقافة المحلية، بعدها لغة تتوسل بها الذات في التعبير عن هويتها، لتعلن عن انفتاحها ورفضها لكل أشكال القطيعة مع الآخر.

يمثل فضاء الصحراء فضاء دلاليا بامتياز. يرفد عناصر الرواية جميعها، ويكرس المواءمة الدلالية مع شبكة العلاقات السردية من: زمن وأحداث وشخصيات، ورؤية. وفوق هذا وذاك تجسد الصحراء الجزائرية في النص ـ كما في الواقع الحي ـ الانتماء للوطن الأم، وتعبر عن خصوصيته الحضارية والثقافية.

لذا لعب الفضاء المكاني على المستوى الإنساني والثقافي والجغرافي دورا كبيرا في تطوّر وتغير وعي البطل بالآخر (الجزائري)، واستطاع هذا الأخير (البطل) أن يحقق نوعا من التواصل الروحي الإنساني الذي طالما افتقده في موطنه الأصلي فرنسا. بعدما خسر أبويه وحبيبته.

بادر أهالي قرية سيدي لحسن الطرهوني إلى الترحيب بالوافد الجديد، وقد شكلت زيارة الطيب ــ أحد شباب القرية الذين يجيدون اللغة الفرنسيةــ لبرج المراقبة نقطة التقاء، وتواصل بين الأنا والآخر، أدت إلى إذابة الجليد بين الطرفين، ومدت جسرا للتقارب والحوار الجاد بين فابيان والأهالي.

ولاحت في أفق هذه القرية الصحراوية النائية ملامح التأسيس لعلاقة إنسانية نبيلة، تتبع من الفطرة الإنسانية، وتتجاوز اعتبار اختلاف اللون والجنس والثقافة. يسودها التعايش، ويطبعها الكرم الإنساني النبيل. تكرسها تلك اللقاءات المتعددة التي جمعت كل من الطيب وفابيان، أو تلك التي جمعت بين هذا الأخير وأهل القرية، وقف فيها فابيان على معاناة الأهالي، وعلى حجم الاضطهاد الممارس عليهم من قبل المستعمر الفرنسي، رغم سلميتهم وطيبتهم.

بدا لفابيان أن أهالي المنطقة ـــ على خلاف ما كانت تروج له أساليب الدعاية الفرنسية . أناس على قدر كبير من الطيبة والكرم والتسامح، وتقبل الآخر. لذا نراه كثيرا ما يقف مشدوها حائرا بعد كل لقاء يجمعه بأهل القرية أو بصديقه الجديد الطيب " من السخاء العربي، يتملكه إحساس بالطمأنينة (سليم بتقة،2014، ص80)

فيحدث نفسه بأن " لا شيء مما ذكر له صحيح.. إنهم لطفاء.. كرماء.. معاشرون...بل أناس مثل بقية الناس الآخرين. لهم أسماء وألقاب (الطيب، العيد، الحاج عيسى) انتماء وأنساب. لديهم أسر تعمل تقريبا كجميع العائلات الأخرى. إنهم يحبون، يكرهون، يغارون، يغنون، يفقرون..." (سليم بتقة،2014، ص34)

وقد أدرك (فابيان) بعد معايشته للأهالي أن ما روج له دعاة الاستعمار في حربهم على الجزائر، كان مجرد محض ادعاء، وأن تلك الكتابات التي ملأت عقل العالم، لا أساس لها من الصحة، فهي كما يقول عنها مجرد ادعاءات كاذبة " تقفز فوق الواقع الفعلي... بوق يحاول إبراز عالم القيم المصطنعة والرخيصة في المستعمرة القائمة على الكبرياء واحتقار الأهالي " (سليم بتقة، 2014، ص56)

وقد أدت هذه التجربة إلى نمو وعي البطل، واهتزاز تلك الصورة المثالية لرسالة فرنسا النبيلة التي كان يحملها في ذهنه. على غرار اهتزاز صورة الصحراء الجزائرية لديه، التي كانت كما يسوق لها الإعلام الفرنسي، تعني السحر والجمال ولا تتجاوزهما، فقد ورد على لسان السارد في حديثه عن فابيان:" أخذ الجريدة وبدأ يتصفحها، لم يثر انتباه صاحب المقال في هذه البلاد غير الشمس والرمال الذهبية، والمناظر الطبيعية الخلابة، وكأن المنطقة مجتمع خال من الحياة، فلا وجود لذلك الإنسان المسحوق المطرود من أرضه، لا فقر، ولا انتفاضات، بل كل شيء يوحي بالاستقرار" (سليم بتقة، 2014،ص65، ص66)

تغير وعي فابيان بعد هذه التجربة الحياتية، فقد تماهى مع أهالي القرية وعانق قضيتهم المصيرية وآمن بحقهم في الحرية والحياة الكريمة، بعد أن تحول إلى واحد من أبناء الصحراء. يتنفس كما يقول السارد عبر ايقاع واحد معهم، (سليم بتقة، 2014، ص81) يعمق شعوره بالانتماء إلى الأهالي والامتزاج بهم رؤيته لـ" مشاهد الإذلال والإهانة التي تطال الأهالي، فيحس باحتراق رأسه .." (سليم بتقة، 2014، ص80)، وكذا حبه الكبير للضاوية الفتاة الصحراوية الجميلة، وانجذابه إليها ورغبته في خطبتها وقد توسل السارد هذا الحب سبيلا من سبل تجسيد التواصل، وتحقيق اللقاء والتماهي بين الأنا والآخر، الذي انتهى بإقبال فابيان على اعتناق الدين الإسلامي. ويمثل هذا اللقاء المنشود في اعتقدنا مدار الدلالة، وبؤرة الشعرية في رواية جذور وأجنحة

5. خاتمة:

يسلط الكاتب الضوء على تلك الصورة النمطية للآخر القابعة في ذهن المتلقي الجزائري والناتجة عن إملاءات الوعي به بعده الغريب والمختلف والمفارق. وهي صورة كرست القطيعة التاريخية معه والتي أسس لها الغزو الفرنسي للجزائر. لكن السارد حاول زعزعة هذه الصورة النمطية المشوهة للآخر والراسخة في الوعي الجمعي، أو على الأقل حاول تشويشها، من خلال فتح باب الحوار والتواصل المباشر معه (الآخر)، والبحث عن المشترك الإنساني المفقود في العلاقة بين الطرفين، وقد كشفت الرواية عن مستويات للتلاقي المثمر مع الأنا والآخر، وتوسلت إلى تجسيد بنيته المعرفية بجملة من الآليات كـ: اغتراب الشخصية واستقطاب الآخر والتبئير عليه وتوظيف الذاكرة والاشتغال على التراث المحلى، واعتماد تعدد اللغات والأصوات... وغيرها. وقد جعلت هذه الفنيات حركة السرد تنزع إلى تجسيد التماهي المنشود بالآخر ليس خارج الإنسان وإنما داخله، ومن عمق تجذّره في قيمه الإنسانية النبيلة كـ: الحب والتسامح، والإيمان بالهوية الانسانية، والنزوع إلى التصالح مع الذات أولا ثم مع الآخر.

6. قائمة المراجع:

1. ينظر محمد مصايف، الرواية العربية بين الواقعية والالتزام، الدار العربية للكتاب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983
2. واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر (بحث في الأصول التاريخية والجمالية) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ،1986
3. بشير بويجرة، بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري (جماليات وإشكاليات) ج2، دار الغرب للنشر والتوزيع ،2001، 2002
4. سعيد علوش، الروايا والأيديولوجيا في المغرب العربي، دار الكلمة للنشر، بيروت، 1981
5. بوجمعة بوشوشة، الثورة الجزائرية بين الواقعي والمتخيل في الرواية الجزائرية المعاصرة، يومية المساء الجزائرية، الجزائر، 28 ديسمبر، 1988، ع 1012،

6. بتقة سليم، جذور وأجنحة، دار علي بن زيد للطباعة والنشر، بسكرة، الجزائر، 2014
7. محمد بدوي، الرواية الجديدة في مصر، دراسة في التشكيل والأيديولوجيا، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع مصر، ط1، 1993
8. عشراتي سليمان، الشخصية الجزائرية، (الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2002
9. لينة عوض، تجربة الطاهر وطار الروائية بين الأيديولوجيا وجماليات الرواية، عمان، 2004،
10. محمد نجيب التلاوي، الذات والمهماز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ط ،1998
11. ريم الفواز، انعكاسات الآخر في الرواية العربية، (ملتقى الآخر في الرواية العربية) مؤسسة الانتشار العربية، بيروت، 2011، ط1، ص212
12. عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991 .